٣٠ ذو النون المصرى الفيلسوف المتصوف

بعد دخول الإسلام مصر.. كان يغلب على الفكر المصرى ـ فى بدايات القرن الثامن الميلادى ـ الطابع الدينى الذى ينحصر فى الشريعة والفقه والحديث، فمن أراد أن يكسب الدنيا والآخرة. فليؤمن بالله وملائكته ورسله، ومن شاء كل الخير فليتفقه فى الدين الجديد، وكان الفقهاء وقتئذ هو المرجع الوحيد. وما أن جاء النصف الثانى من هذا القرن. حتى ظهر شكل جديد من أشكال الفكر يمجد العقل، ويردد دائما: «ما خلع الله على عباده خلعة أفضل من العقل، ولا قلده قلادة أجمل من العلم، ولا زيَّنه بزينة أعظم من الحكم وكمال الخلق.. فمن أدرك الآخرة فليكثر من استخدام العقل، وليكن أول شىء يسأل عنه هو العقل، لأن جميع الأشياء ـ بعد ذلك ـ لا تُدْرَك إلا بالعقل..».

كان رائد هذه الحركة الفكرية الجديدة وموجهها هو «ثوبان بن إبراهيم أبو الفيض» المعروف بذى النون المصرى. العالم والفيلسوف المتصوف، الذى استطاع أن يؤسس أول مدرسة تعنى بالتصوف فى مصر.

وذو النون ـ كما تقول عنه كتابات السلف من العرب وغيرهم متفقة مع ماجاء بالموسوعة الصوفية للدكتور عبد المنعم الحفنى ـ من إخميم بصعيد مصر. كتب عنه أبو عمر الكندى فى كتابه «أعيان الموالى» فذكر أنه كان مولى لقريش، وكان أبوه نوبياً مصرياً. وقال فيه المستشرق نيكلسون: «هو أحق رجال الصوفية على الإطلاق أن ينسب إليه أنه واضع أسس التصوف» وفيه يقول جامى بكتابه نفحات الأنس: «هو رأس هذه الفرقه. فالكل قد أخذ عنه، وانتسب إليه، ولقد سبقه فى التصوف مشايخ ولكنه كان أول مَنْ فسَّرَ إشارات الصوفيه وتكلم فى هذا الطريق.

وكان أول مَنْ تكلم فى مصر فى أحوال ومقامات أهل الولاية، وأول مَنْ عرَّف التوحد عند الصوفى وكان له أكبر الأثر فى تشكيل الفكرة الصوفية».

ويروى ابن خلكان أنه كان عبدا أعتقته قبيلة قريش، وأدخلته فى ولائها. وأنه تتلمذ على الإمام مالك، وروى ذلك كتاب الموطأ نقلا عنه. ويذكره صاحب الفهرست بين الفلاسفة الذين تكلموا فى علم الكيمياء، وينسب إليه كتابان فى هذه الصنعة، ويعده ابن القفطى بكتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» من طبقة جابر بن حيان. فى صناعة الكيمياء، وعلم الباطن وعلوم الفلسفة.

كان ذو النون كثير الملازمة لبلده إخميم التى تحظى فى التاريخ بالتصاوير العجيبه، ويقال إنه فتح عليه علم ما فيها بطريق الولاية. وكانت له كرامات.

وقيل فى اسمه ذى النون لأنه أمتحن فى دينه مثل النبى يونس عليه السلام. وأوذى كثيرا، لكونه أتى بعلم جديد هو علم التصوف.

أما نسبته المصرى عند غير المصريين من الصوفيه، فلأنه كان كثير الأسفار. ويحكى هو نفسه حكايات كثيرة فيها أنه كان فى مكة وفى البصرة وفى الشام وساحل البحر وجبال أنطاكيه، وجبال بيت المقدس.

كان ذو النون ـ كما يقرر دارسوه ـ يمتاز بتلك الرغبة المحمومة التى تدفع دائما إلى البحث عن المجهول، وكانت الآثار المصرية القديمة. تحيط بالمنطقة التى ولد ونشأ فيها.. تثير فى نفسه الإحساس بالتحدى.. تحدى الزمن قبل كل شىء.

فلم تكن له هواية وهو فى عمر الشباب إلا التجوال بين تلك الآثار متسائلاً فى ذهول عَمَّا تنطوى عليه من أسرار وأفكار، ولم يجد وسيلة يكشف بها النقاب عن ذلك اللغز إلا أن يتعلم لغة المصريين القدماء.. ويوم أن تم له ذلك أدرك أن مصر إنما هى أصل كل حضارة ومنبت نشوء الضمير، والبيئة الأولى التى نمت فيها الأخلاق.

وينتقل ذو النون المصرى نقله أخرى، فقد تحوَّل من كفاحه مع المادة وضرورة إخضاع عناصرها لإرادته إلى كفاح مع النفس، والتصدى لمجاهدتها، والعمل على أن يغوص فى جوفها، وبالتالى تحولت رؤيته من الخارج إلى الداخل مختاراً لنفسه طريق الزهد والتصوف.

فكان ذو النون أول من تكلم فى مصر عن الأحوال والمقامات التى يندرج فى ضوئها المتصوف، ويعلو فى مقامه حتى يبلغ درجة الفناء، فيقول: «إن المؤمن إذا آمن بالله، واستحكم إيمانه، خاف الله، وإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله، فإذا استقرت عنده درجة الهيبة، دامت طاعته لربه، فإذا أطاع تولد من الطاعة الرجاء، فإذا استقرت درجة الرجاء تولدت من قبل الرجاء المحبة، فإذا استحكمت المحبة فى قلبه استتبعت درجة الشوق، فإذا اشتاق أدى شوقه إلى الأُنس بالله فإذا أنس بالله، اطمأن إلى الله، فكان ليله نعيم، ونهاره نعيم، وسره نعيم، وعلانيته فى نعيم».

والمعرفه عند ذى النون تأخذ ثلاثة أشكال: معرفة عامة المؤمنين، ومعرفة المتكلمين والفلاسفة، ومعرفة الخاصة، وهم الأولياء المقربون الذين يعرفون الله بقلوبهم. وهذه المعرفة الأخيرة هى أرقى أنواع المعارف.

وكما كانت لدى ذى النون نظرية فى المعرفة فقد كانت لديه أيضاً نظرية فى المحبة، فهو يرى أن ثمة حباً متعادلاً بين العبد وربه، وأن هذا الحب من شأنه أن يقود الإنسان إلى الشعور الغامر بربه، واستغراق ذاته فى ذات الله وهذا هو الحب الإلـهى الذى كان يراه ينبغى أن يظل سراً.

وأحدثت هذه الأفكار الجديدة لذى النون المصرى ردود أفعال مضادة، فرأى والى مصر وقتئذ أن يرسله إلى الخليفة المتوكل فى بغداد، وفى هذا يقول: «لما حُملت من مصر فى الحديد إلى بغداد لقيتنى امرأة عجوز قالت لى: إذا دخلت على الخليفة المتوكل فلا تَهَبْهُ، لأنك إن هبته سلطه الله عليك.»

وعمل بنصيحة العجوز، فحين سأله الخليفة عمَّا يُنْسَب إليه، رد قائلا: «يا أمير المؤمنين، إنْ قلتُ لا.. كذَّبتُ المسلمين، وإن قلت نعم كذبت على نفس بشىء لا يعلمه الله تعالى منى، فافعل أنت ما ترى، فإنى غير منتصر لنفسي». فقال الخليفة: «هو رجل برىء مما قيل فيه. وأعاده إلى مصر بعد أن عفا عنه الخليفة وأكرمه ونَعَّمَه ـ وكما يذكر الأستاذ سعد عبد العزيز فى كتابه فلاسفة الإسلام ـ وكم كانت فرحة المصريين وبهجتهم عند لقائهم به، فقد رحبوا به ترحيباً كبيراً،

كما يذكر لنا عن هذا الفيلسوف المتصوف مشهدين، **أولهما:** أنه كان يحلو له أن يتجول على شاطئ النيل، وبين المزارع، وفوق جبل المقطم فيجرى معهم حواراً شائقاً عن مفهوم العبادة أو التقوى أو الخير أو الشر، وهو فى هذا الشأن يذكرنا بالفيلسوف اليونانى سقراط... فقد قصَدَ ذات يوم رجلاً يتعبد بجبل المقطم بالقاهرة، فمكث عنده أربعين يوماً راح يسأله خلالها: «فيمَ النجاة؟ فرد الرجل: فى التقوى فقال: زدنى. أجاب الرجل: فِرَّ من الخَلْق ولا تأنس بهم. قال: زدنى.. أجاب الرجل: إن لله عباداً أطاعوه، فسقاهم كأساً من محبته فهم فى شربهم عِطَاشٌ، وفى عطشهم أرويـاء».

أمَّا المشهد الثانى فيسرد علينا ذو النون أنه بينما هو يسير بمحاذاة النيل وسط زرع كثيف إذ به تعترضه امرأة قد تناولت سنبلة ففركتها وهى تقول: يا مَنْ جعلته حباً يابساً فى أرضه ولم يكن شيئاً، أنت الذى صيرته حشيشاً ثم أنبته عوداً قائماً، وجعلتَ فيه حباً متراكباً، ودوَّرته فكوَّنْتَه، وأنت على كل شىء قدير. ثم قالت: عجبت لمن هذه مشيئته كيف لا يُطاع؟.

ثم ينتقل ذو النون إلى صورة أخرى من صور العبادة، فيحكى عن فتاة رآها فى ثياب بالية، وقد جلست بقارب تتقاذفه الأمواج على سطح النهر، وكان قلبها قد تعلق بحب الله، فعزفت عن الناس وآثرت أن تتعبد له فوق المياه المضطربة، وبينما هى كذلك إذ بها تلاحظ مجموعة من الحيتان تنساب فى الماء متجهة نحوها. فما كان منها إلاَّ أن راحت ترنو إلى السماء وهى تقول: لك تفرَّدَ المتفردون فى الخلوات، ولعظيم رجاء ما عندك سبح الحيتان فى البحور، ولجلال هيبتك تصافقت الأمواج، ولمؤانستك استأنست بك الوحوش».

كل هذه المشاهد يسردها ذو النون ليطلعنا على مدى احتمال الإنسان وكيف كان يصبر على الحرمان والصيام فى عبادته، وكيف كان يقوم الليل متعبدا ومتأملاً في ملكوت الله. والحق أن ذا النون المصرى كان مؤمناً بالله ذلك الإيمان الصوفى الذى جعله يقول: إنه بمقدار ما يعرف الصوفى ربه يكون إنكاره لنفسه، وتمام المعرفه الله، تمام إنكار الذات. فكأن الصوفى يجد أمامه مجالاً مبسوطاً كلما طوى قدْراً من ذاته، ويكون فى ذلك إهدار لجزء من نفسه، وكسب لجزء من هذا المجال

الإلـهى. وهكذا حتى تتطهر الذات البشرية وتفنى فى محبة الذات الإلـهية. فغاية الصوفى أن تزداد معرفته بحقيقة الألوهية. وأن يقترب من هذه الألوهية حتى تحترق ذاته بها. ويستمر تقدمه فى دائرة المعرفة متبعا طرق التصفية حتى تتلاشى الذات العارفة وهو ما يعبر عنه فى التصوف بمقام الفناء.

وإذا كان ذو النون لم يقل صراحة بمقام «الفناء» كما يقرر الدكتور محمد على أبو ريان فى كتابه «الحركة الصوفية فى الإسلام» حيث أن رصد هذا المقام قد جاء فى وقت متأخر عن ذى النون، إلا أن طبيعة فكر ذى النون كانت من الضرورى أن تؤدى به إلى هذه المرحلة قبل الأخيرة فى المقامات الصوفية، أى مرحلة الفناء.

ومن أقوال ذى النون التى جمعها الدكتور أبو ريان، والتى تجسد فكرة الصوفية عنده قوله: أسألك ـ يقصد سؤال الحق سبحانه وتعالى ـ باسمك الذى ابتدعت به عجائب الخلق فى غوامض العلم بجود جلال جمال وجهك أن تجعلنا من الذين سرحت أرواحهم فى العُلاَ، وحطت هِمَمُ قلوبهم فى مغلبات الهوى، حتى أضحوا فى رياض النعيم، وجنوا من ثمار التسنيم، وشربوا بكأس العشق، وخاضوا لجج السرور، واستظلوا تحت فناء الكرامة، اللهم اجعلنا من الذين شربوا بكأس الصفاء فأورثهم الصبر على طول البلاء، حتى توليت قلوبهم فى الملكوت، وجالت بين سرائر حجب الجبروت، ومالت أرواحهم فى ظل برد نسيم المشتاقين الذين أناخوا فى رياض الراحة، ومعدن العز وعرضات المخلدين..»

ومن أقواله: «إن لله عباداً ملأ قلوبهم من صفاء محض محبته، ووهِجَّ أرواحهم بالشوق إلى رؤيته، فسبحان من شَوَّق إليه أنفسهم، وأدنى منه هممهم، وصَفَتْ له صدورهم، سبحان موفقهم، ومؤنس وحشتهم، وطبيب أسقامهم. إلـهى، لك تواضعت أبدانهم، ومنك إلى الزيادة ابنسطت أيديهم، بما طيبت به عيشهم، وأدمت به نعيمهم، فأذقتهم من حلاوة الفهم عنك، ففتحت لهم الجواز فى ملكوتك، بل آنست محبة المحبيين، وعليك معول شوق المشتاقين، وإليك حنّت قلوب العارفين، وأَنِسَتْ قلوب الصادقين».

ومن أقواله: «الأنس بالله من صفاء القلب مع الله، والتفرد بالله، والانقطاع من كل شىء سوى الله».

ومن أقواله فى المحبة: «أن تحب ما أحب الله، وتبغض ما أبغض الله، وتفعل الخير كله، وترفض كل مايشغل عن الله، وألاَّ تخاف فى الله لومة لائم، مع العطف علي المؤمنين، والغلظة على الكافرين، واتباع رسول الله ﷺ فى الدين».

وقال: «إياك أن تكون بالمعرفة مدعياً، أو تكون بالزهد محترفاً، أو تكون بالعبادة مرائياً..».

وعن المعرفة يقول: «معرفة عامة المؤمنين، ثم معرفة المتكلمين والحكماء، وأخيراً معرفة خواص الأولياء المقربين الذين يعرفون الله بقلوبهم.. وهى أسمى المعارف، وأكثرهم يقيناً، وهى ضرب من الإلهام».

وسُئل عن كيفية معرفته بربه عز وجل فقال: «عرفت ربى بربى، ولولا ربى ما عرفت ربى».

وكان ينصح مريديه قائلا: «اعلموا أن العاقل يعترف بذنبه، ويحس بذنب غيره، ويجود بما لديه، ويزهد فيما عند غيره، ويكف أذاه، ويحتمل الأذى من غيره».

وقد كان مدار الكلام عند ذى النون على أربع: «حب الخليل، وبغض القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل».

والتوبة عند ذى النون: «توبتان.. توبة العوام وتكون من الذنوب. وتوبة الخواص وتكون من الغفلة».

ولذى النون ـ كما يقرر الدكتور أبو ريان ـ نظرية فى الحب الإلـهى تأثر بها كل من جاء بعده، ومضمونها: «أن الحب المتبادل بين العبد والرب يؤدى إلى الوصول إلى الله. فيشعر العبد باستغراق ذاته فى حب الله».

إلى غير ذلك من الأقوال والأفعال لهذا الصوفى المتقدم ذى النون المصرى، والتى جعلته من السابقين فى الحركة الصوفية بوجه عام.

وهكذا كانت حياته إلى أن لقى ربه عام ٢٤٥هـ، ودفن بقرافة سيدى عقبة بالقاهرة. ولكن أفكاره لا تزال باقية، حيث تؤكد أنه واحد من أعلام الصوفية الكبار.

* * *